مقدمة

هذا الكتاب

عـثرنا على هذه القـصة فى بـاديء الأمر بمخطوطة بدير السـريان العامـر. كان ذلك بإرشاد صاحب النيـافة الحبـر الجليل الأنبا شنوده (أسـقف التـعليم الكنسى) والذى تفـضل بمراجـعـة الكتـاب... ولكن المخطوطة لم تذكـر سوى الناحـية القـصصـية دون تحـديد تاريخى دقيق، وبـعد تحقـيق وبحث داما مـدة طويلة عثـرنا على أصل تاريخ القصة، فوجدنـا هذه القصة فى سنكسار الكنيسة القبطيـة مختصرة جداً وكانت نهايتها ناقصة فلم يذكر شيئاً عن سقطة القديس وتوبته، ولكن ذلك ذكـر فى سنكسار رينيـه باسيـه الذى ذكر حـياته بأكـثر تفصيل عما ذكرته المخطوطة خاصة من الأول.

أخـيراً عـثرنا فى كـتاب «قـديسـو مصـر– أوليرى» على القـرن والمكان اللذين عاشا فـيهما القديس، وفى النهاية حـاولنا ربط القصة فى هذه الصورة التى بين يديك أيها القارئ العزيز.

هذه القصة

هى قصة لأحد آباء البرية القديسين توضح حياة التوبة بالنسبة لقديس سقط ! كما أنها توضح لنا...

توبة القديسين

مثل كل توبة تحتاج إلى بداية من جديد فى طريق الرب بإتضاع وإنسحاق وندم ودموع وينبغى أن نعلم أن كل إنسان معرض للسقوط لا فرق بين قديس وغير قديس لأن التحصن ضد السقوط هو فقط فى الالتصاق بالرب، وفى الإلتحاف بمعونته إن كنا نطلبها بلجاجة واحتياج.

ولكن إن كنا قد سقطنا فيجب أن نعلم

أولاً : الرجوع فرحة

أن التوبة حزن وألم وبكاء... فكيف يؤول هذا الحزن إلى فرح ...؟!

من الطبيعى إذا أخطأ عبد إلى سيده فإنه يحزن خوفاً من سيده ولايبقى حزن بعد معرفته بصفح سيده «ولكن لا أعود أسميكم عبيداً» (يو ١٥:١٥). فتعال معى يا أخى لنتعلم كيف نحزن على خطايانا كأبناء... إن حزن الإبن يكون شديداً حتى بعد صفح الأب لاسيما وإن كانت علاقة هذا الإبن قوية بأبيه قبل سقوطه (كما ستري فى توبة الأب يعقوب).

الأب يصفح عن إبنه حتى ولو كان مايزال بعيداً... ولكن عواطف الابن تبقى متأثرة ووجهه مخزياً- نعم! فهو يحس بما صنعه أمام أبيه الذى يحبه كثيراً، لذلك يظل قلبه ينطق «أخطأت... ولست مستحقاً أن أدعى لك إبناً». (لو ١٥:١٨،١٩).

يا له من عجب! فى الوقت الذى يبكى فيه هذا الابن يكون الأب ناسياً ما صنعه ولايعود يذكر خطاياه أبداً. الأب مبتهج بعودة ابنه إليه لكن الابن لما يكف عن الندم والخزى والخجل فى حضرة أبيه!!

لذلك فالابن يبكى ويحزن لا لتغفر خطاياه أو ليعفى من قصاص بل لأنه يعلم أنه جرح عواطف أبيه المحب فليس بعجيب إن كان ندمه وحزنه يستمران طويلاً..!!

هو يحزن ولكن حزنه فى الرجاء لأنه يعلم أن بنوته لن تمح أبداً.

وأنت يا أخى لماذا تتوب توبة الأجراء...!؟

لاتقبل يا أخى صليباً بدون يسوع- لأن الصليب بدون يسوع غير محتمل وكذا الحزن بلا رجاء!

«إن يسوع من أجل السرور الموضوع أمامه إحتمل الخزى مستهيناً بالعار...» فالذى يشجعنا على إحتمال الحزن هو الرجاء الموضوع أمامنا.

ثانياً - الغرض من الشعور بضعفنا

لايقصد الكتاب المقدس من إشعارنا بضعفنا الشخصى وتحذيرنا

من عـدونا وتخويفنا من الخطـية إلا لأن يعلمنا فـقط: أن سر قـوتنا وخلاصنـا هما من الرب الذى منه المعـونة فلا نكف عن طلبـها، فـهو المحارب عنا والمنتـصر فينا، فـلا ننفصل عنه بشعـورنا ببرنا الذاتى. فليس المقصـود من شعورنا بضـعفنا بالنسبـة لإبليس أن نرتعب منه بل أن نحذر منـــه، فنحن نستطع بقوة الله أن نـسحقـه تحت أقدامنا، ولا يطلب منا أن نـخاف من الخـطيـة إلا لكى نسـهـر ونلح فى طلب معونة الله ونهرب من الشر، لذلك إحذر يا أخى من :

شيطان الكآبة

للخطية تأثيـرات مختلفـة على النفس فقـد تؤدى إلى أن نغمض عيوننا عن نـعمة الإنجيل وقوة خـلاص ربنا وعمق محبتـه لنا. فنجد القديس يعـقوب بعدما أخطأ احـتاج إلى من يكشف عن عينيـه ثانية تلك الأمور.

وإن كان اللـه أحياناً يسـمح من أجل أعطائنا نعـمة الانسـحاق أن نسقط فى بعض الخطايا كما سقط هذا القديس، ولكن ينبغى أن يحذر من يسـقط من شـيطان الكآبة الذى يعـقب السـقـوط، فهـو يحـارب الساقطين لكى ييأسوا ويتركوا طريق الرب أو يخيبوا من نعمته.

كلا يا أخي...

لاتستـمع إلى تعبيرات عـدونا، ولا تتركه يشـمت بك مادمت فى طريق الرب، بل «ليـرجع إلى الوراء وليـرتد إلى خلف جمـيع الذين يبتغون لى الشر».

«لأنه من هو هذا الفـلسطينى الأغلف حـتى يعـيـر صـفـوف الله الحى!» (١ صم ١٧:٢٦) كـيف تيـأس وأنت فى طـريق الرب؟ وإن أردت أن تطمئن تعال وتأمل...

عمق محبة الله

إن الإنسان الشرير لايستطيع أن يقبل «الله محبة» لأنه لايشعر أن الله يحبـه، مع أن هذا الشعور كفيـل بأن يرجعه إلى الله. وكثـيراً ما يرمينا عـدونا بالشعور بعدم مـحبة الله لنا، وربما لأجل كـثرة آثامنا وشدة شـعورنا بخطايانا، لكى يبعـد عن قلوبنا رغبة الله الأكـيدة فى خلاصـنا وإنتظاره وفرحـه برجوعنا. هو ذا الشـيطان يهمـه أن يملأ نفوسنا بالكآبة إلى الدرجة التى ينسـينا فيها محبة الله العـجيبة لنا. فيـصور لنا صدره الحنون المتسع مـخيفـاً وضيقاً بل مـغلقاً، مع أن الرب نفـسه يـرد بقسـوة على إبن زبدي «لست أعـرف من أى روح أنتما» (لـو ٩:٥٥). لأنهما تكلما بمثل هذه الروح على أهل الـسامرة. ألا يكفى أن نعلم أنه أحبنا ونحن بعد خطاة؟

إذن ينبـغى ألا نفصل ذواتنا عن مـحبـة الله بهذه الكـيفـية، أو أن تشغل خطايانا- مهمـا كانت كثرتها- كل تفكيرنا، بل بالحـرى محبة الله. لأن هذا الشعور الأخير يرمـينا فى حضنه المفتوح على الصليب من أجلنا. فالله لايهمه أن نوهم أنـفسنا بخطايا هذا مقدارها، لأن ذلك ليس غرض الله من التوبة. بل بالحرى أن ننشغل بمحـبته فهو القائل «أحب الرب إلهك من كل قلبك وكل فكرك وكل قدرتك».

إنه حسن أن أبكى على خطاياى وأحزن عليها، ولكن ينبغى أن أعلم أن خطاياى هذه مهما كانت لاتستطيع أن تمنع محبة الرب يسوع لى أو تمنعنى عن محبته، فليست الخطية أقوى من المحبة!!

أخيراً يا أخى ينبغى أن تعلم أن التوبة هى لغة الله المحب العطوف على البشرية الساقطة، يفهمها كل الذين يستجيبون لمحبته فيرجعون إليه، وللوقت يقبلهم ويصفح عن آثامهم وينسى تعدياتهم بل يعيدهم إلى رتبتهم الأولى.

فلا عجب إن العالم لايمكن أن يقبل ما لروح المسيح، لأن العالم لايصفح عمن أخطأوا إليه وكذلك أبناء هذا الدهر.

لكن أولاد الله يغفرون لمن يسيئون إليهم ولو كان ذلك إلى سبعين مرة سبع مرات. لذلك فالتوبة هى أيضاً لغة أولاد الله الذين لهم صورة أبيهم السماوى.

هذه القصة

لقديس من القرن الرابع ملأه الأعتزاز بالنفس والكبرياء بسبب كثرة فضائله ومعجزاته لدرجة أنه إتكل على ذاته فسمح الرب بسقوطه ليعلم مقدار ضعفه ولكى تنصلح نفسه. فيعتبر سقوطه نوع من التأديب والإصلاح.

الفصل الأول
القديس المجاهد

«معونتى من عند الرب»

(مز ١٢٠)

(١) راهب قديس عاش فى القرن الرابع الميلادى بمنطقة أتربا

القديس فى نتريا

يحدثنا بلاديوس (أكبر مؤرخ كتب عن سير آباء القرن الرابع الذى عاش فيـه) فيقول: «هناك فى نتريا قـضيت زهاء ثلاث سنوات قابلت فيـها ما يربو على الألفين من أعـاظم الرجال القديسين الذين عـاشوا هناك- إمتازوا بمعرفتهم الروحية وفضائلهم الكثيرة وعاش كل راهب المعيشـة التى تلائمه، إما بمفرده أو فى جماعـة. وألحق بكنيسة الدير منزل خاص بإقامة الغرباء، أما الذيـن يرغبون فى الإقامة مدة طويلة بالدير فكانوا فى العمل والخـدمة كما يسمح لهم بـالمطالعة فى أوقات الراحة. وفى وقت المسـاء كانوا يسـتيقظون على أصـوات التماجـيد والمزامير والصلوات التى كـانوا يرفعونها باستمـرار حتى كان يخيل للإنسان أن عقله خطف إلى جنة عدن...».

وفى هذا الفردوس الأرضى عاش هذا الراهب المجـاهد أنبا يعقوب وانفرد مـتوحداً فـى مغارته التي أقـام بها نحو خـمسـة عشر عـاماً (لايعرف تاريخ رهبنته على وجه الدقة)- أجهد نفسه فيها بالأصوام والصلوات المستمرة وتعلم كيف يعيش لله فقط ولاعجب فهذا القديس كان قد هرب من المعيشـة فى العالم منذ حداثة سنة، ويقال إنه انفرد فى حيـاة الوحدة منذ بداية رهبنته وظل فى عـزلته طيلة هذه المدة لم يدخل فيها المدينة قط.

جمال حياته الأولى

كان هذا القديس محباً للوحدة والسكون، ولكن كانت هناك دوافع فى نفسه تدعوه لخدمة الغرباء، ولبث على مايبدو متردداً بين الاتجاهين، غير أنه إستقر أخيراً فى الوحدة بقطع شوطاً طويلاً فى حياة الفضيلة والجهاد حتى سما إلى درجة عالية، وكان يتسم بجرأته فى الحياة الروحية وقوته فى عزمه وجديته. ظل هذا القديس يواصل جهاده من يوم إلى يوم فى حياة سرية مع الله، لايعلم به أحد من الناس، إلا أن رائحة الحياة الزكية لابد أن تفوح. والله الذى لن يكف عن أن يتمجد فى قديسيه ويكرمهم أراد أن يعلن بره...

مواهب الله له

مرة جاء أحد الأشخاص إلى نتريا لكى يستشفى من مرضه إذ كان شيطان يعذبه، وفى الطريق وهو مار بقلاية هذا القديس صرخ الشيطان ولم يدع الرجل يعبر، وأخيراً خرج منه بصوت مرعب وفى غيظ شديد. وفى الغد ذهب هذا الرجل إلى البيعة المقدسة ولم يكن يعلم سر ما حدث، لكنه لما حدث الآباء الرهبان عن قصته عرفوا السر...! (لأن المريض كان قد عبر بقلاية القديس يعقوب).

ذاعت هذه القصة بسرعة بين سكان نتريا، وللحال إلتف حوله كثيرون ممن بهم أمراض فكان يشفيهم بقوة الله. وقد حباه الله موهبة إخراج الأرواح الشريرة(١).

(١) قال رب المجد : لاتفرحوا بهذا إن الأرواح تخضع لكم، ولكن بالحري إفرحوا لأن أسماءكم قد كتبت في ملكوت السموات.

ولو أن هذا أدى إلى انقلاب المغارة من الوحدة والسكون إلى مكان للزائرين، إلا أن القديس لم يخرج عن سكونه وجمال عبادته مع الله، بل صار زائروه سبباً لتعزيته. وكان يصلى لجميع الآتى إليه. وإزدادت نعمة الله للقديس فى صنع العجائب والمعجزات، وكان لذلك أثره حتى على الزائرين من الوثنيين. وكان يجتذب الكثيرين منهم إلى المسيح ويرسلهم إلى البيعة المقدسة لكي يعمدوا باسم الثالوث الأقدس. واستمر فى هذا حتى ضجرت منه الشياطين وأرادت أن ترعبه... وحاولت أن تسقطه من مجده الروحى!!

الشياطين تحاربه

«مصارعتنا ليست مع لحم ودم بل مع الرؤساء مع السلاطين...
مع أجناد الشر الروحية فى السماويات» (أف ٦:١٢)

ظهر له مـرة الشيطان بهـيئة جـسمـية[١] وقال له «يايعـقوب قد ضجـرت إلى الغاية لأنك تخرجنى من كل مـوضـع لى، أقلقت راحتى ولم تتركنى استريح ساعة واحـدة..»، ولما أبصره القديس عرفه وقال له لوقتـه: «ما هى قـدرتك أنت حتى تقف أمـام الرهبان وتزعـجهم؟. والتفت إليـه القديس بقـوة ورفع عكازه الذى كان مـوسوماً بعـلامة الصليب، وضـرب الشـيطان على رأســه ثلاث ضربات مـنتهـراً إياه وقائـلاً: «الرب يسوع المسـيح يبعـدك عنا أيها الشـرير الطاغى يا إبن الهلاك، فخاف الشيطان العدو وهرب...

حيلة إبليس الأولى

كثر زوار القديس الذين أتوا ليتشفوا من أمراضـهم أو يطلبوا بركاته وصلاته، وكـان يبرئهم ويـعزيهم. فأراد عـدو كل بر أن يستـغل هذه الفرصة لكى يندس فى الوسط حسب عادته بالنسبة لكل عمل صالح.

فحـدث أن إحتال علـيه قوم أشـرار، فجعلوا أمـرأة خاطئـة تتزين وأتت إليه ودخلت إلى المغارة لعلها تغـريه بالخطيئة. ولكن البار كان

(١) هذه هي طبيعـة محاربات الشياطين في البرية إذ أنهم قـد يصلوا إلي درجة الظهور أحياناً بهيئة جسمية لمحاربة الرهبان.

مازال فى نضارته الروحية، فكلمها بكلام الحياة بقوة، وكانت كلماته مؤثرة كالسيف الحاد، حتى ارتعدت المرأة ولمحت على وجهه نعمة لم ترها فى أحد مـن البشر من قـبل. فانطبـعت هذه الصورة فى نفـسه فاشتاقت إلى التوبة والعيـشة على مثال هذا القديس، لذلك صرخت بدموع وندم فأرسلهـا القديس إلى أحد الكهنة القديـسين المشهورين فى المنطقة لكى يتـقبل منها إعتـرافها، وهكذا عاشت بعـدها فى حياة مرضية على.

الفصل الثانى
يعقوب الذى ملأه الغرور

«قبل الكسر الـكبرياء وقبل
السـقـوط تشـامخ الروح»

الشعور بالقوة

أول درجات السقوط

بعد أيام ليست كثيرة جاء الشيطان مرة ثانية وقال له : «يا يعقوب يا يعقوب قد ضربتنى ثلاث ضربات يمكن أن تداوى ولكنى سأضربك ثلاثا يعسر شفاؤها». ويبدو أن القديس كان قد إستهان بقوة أعدائه، فلم يعد يهتم كما يجب باليقظة الروحية وأحس فى نفسه أنه قوى ونيي أنه تحت الضعف فلم يداوم على اللجاجة فى طلب المعونة من الله. والتفت القديس إلى العدو، وصرخ فى وجهه وانتهره، فتركه العدو إلى حين...

إبليس يعيد الكرة

اشتهر أمر القديس، وبلغت معجزات عمل نعمة الله فيه كل أحد، بما فى ذلك السلاطين والولاة. وظل طوال هذه المدة لم يجرؤ عدو البر أن يقترب منه جهاراً، لكنه قطعاً لم يكف عن محاربته سراً. ثم عاد الشيطان إليه مرة أخرى ليجزيه- وحيل عدونا دقيقة ومصائده خفية وشراكه منصوبة- وذلك بأن دخل فى إبنة وإلى ذلك الإقليم، ولم يكن لأبيها سواها. فلما صرعها الشيطان، أحضر لها أبوها الأطباء. وهؤلاء أجهدوا أنفسهم واستخدموا كل حكمتهم فى علاجها، ولكنهم لم يفلحوا. ولم يكن نصيب المنجمين الذين استحضرهم والدها بأحسن حال من الأطباء. بل بالعكس إزداد صرعها، فأصبح والدها فى حيرة شديدة. وإذ تعب جداً قال له أحد عظمائه: «دامت لنا سعادتك يا مولاى، قد عجز هؤلاء عن شفاء ابنتك. فإن كان رأى مولاى أن تحمل هذه الإبنة إلى الرجل الساكن بهذه المنطقة، المدعو

الفصل الثالث
يعقوب الساقط

«لماذا أسلك كئيباً من مضايقة عدوى.. أرسل نورك وحقك فإنهما يهدياننى ويصعدانى إلى جبلك المقدس إلى مسكنك، تجاه وجه الرب الذى يفرح شبابى»

«لماذا أنت حزينة يانفس ولماذا تزعجيننى. توكلى على الله فإنى أعترف له. خلاص وجهى هو إلهى»
(مز ٤٠)

يعقوب الراهب، فربما يكون شفاؤها ببركة صلواته- فقد شفى كثيرين». فتنفس الأب المتحير، الذى كان يتلهف إلى أى مشورة، وقال لهم: «أسرعوا على اسم إله هذا الراهب بتنفيذ المشورة». فحملوا الصبية فى إكرام ومضوا بها إلى حيث كان أنبا يعقوب... وفى الطريق ما كادوا يقتربون من قلايته، حتي هرب الشيطان منها وهو يقول: اللهيب! اللهيب! ما أطيق أبصر وجه هذا القديس. تعجب الرجال جداً بما حدث وحملوا الصبية سالمة إلى أبيها. وفى تلك الأثناء رجع أحدهم وقص ما جري على القديس، وأعطاه بعض الهدايا من السلطان، فرفض أن يتقبلها وباركه.

لكن الأمر لم يدم طويلاً حتي رجع إلى الصبية الروح النجس ثانية لأنها كانت إبنة رجل وثنى مما إضطر الرجال إلى أن يحملوها إلى القديس...

ولما مثلت بين يدى القديس هرب الشيطان منها. ولكنهم لما حملوها إلى والدها. رجع إليها الروح النجس أيضاً. وتكرر الأمر عدة مرات فأخبروا والدها بذلك، فتعجب وتغير جداً. ولم يجد أمامه إلا أن يرتب لها خداماً لخدمتها، وأن يضعوها على مقربة من قلاية القديس، الذي لما سمع رفض فى باديئ الأمر رفضاً باتاً. غير أنه تردد وقبل أخيراً، خاصة لما أرسل إليه والدها السلطان رسالة يستعطفه ويترجاه وظل الأمر يتكرر.. إلى أن دخلت الصبية قلاية القديس!!!

كان الروح النجس يهرب منها، حالما يدخلونها باب القلاية. ولكنه يرجع إليها بمجرد خروجها من القلاية. وبتكرار العملية عدة مرات، أصبح من السهل إقناع القديس أن تبقى داخل قلايته بصفة مستمرة. فكانوا يحضرون لها الطعام والشراب داخل القلاية.

(أن تبقي الفتاة داخل قلاية أحد الرهبان أمر خطير- إنها لاشك حيلة شيطانية).

كل قتلاها أقوياء...

(أم ٢٦:٧)

مرت الأيام والإبنة راقدة فى أحد جوانب القلاية. ولما كان يوم من الأيام، أراد عدو كل بر أن ينتقم من القديس الذي كان غارقاً فى أفكار كثيرة عن قوته ومجده الروحيين. ولعله فكر فى حاجة الناس الشديدة إليه، حتي أتوا بهذه الإبنة فى قلايته!

وقد سببت له هذه الأمور نوعاً من الاسترخاء الروحي، مما جعله فاتراً فى طلب معونة الله بقوة، فخاطبه إبليس بنفس المنطق السابق- منطق المتهاون(١).

---

(١) إن من أهم عوامل سقطة الإنسان هو أن يتكاسل في محاربة أسباب الخطية، لأن ذلك يولد فيه التهاون وعدم اليقظة. وعندما يكسل في طلب المعونة من الله بلجاجة، يسقط بالتأكيد. لذلك يحذرنا الكتاب: إسهروا... إهربوا من الشر ومن كل شبه شر. ويعلمنا القديس مكاريوس الكبير بأن الرب جعل كل مقاومة الشيطان فى حدود استطاعت إرادة الإنسان وحريته. ولكن لم يعط الإنسان قوة كاملة يستطيع بها أن يسيطر على كل انفعالاته النفسية وشهواته فيحتاج إلى معونة الله. ولذلك يصدق القول... إن لم يبن الرب البيت فباطل تعب البنائين... (مز ١٢٧ : ٢).
فلا نعجب من سقطة هذا القديس، لأننا مهما بلغنا من القداسة فسوف لاننتصر أبداً بقوتنا الشخصية. وهذا هو سر حاجتنا الملحة إلى التضرع والسهر والصلاة كل حين بلجاجة.
ولاننسى أننا فى فترة اختبار طوال غربتنا فى العالم لأن الإنسان مخلوق له إختيار بين الموت والحياة وبين الخير والشر وتركت له حرية الاختيار مادام فى العالم ويمكن أن يميل نحو أى اتجاه.

سقطة القديس

«إذن مـن يظــن أنه قـائم فلينظـر أن لايـسـقـط»
(١ كـو ١٠:١٢)

اسـتسلـم المسكين لأفكاره ووقع فى صـراع مرير. وكلـما مـر به الوقت كان يرجع إلى الوراء فتفتر عزيمته وأخيراً سقط...

خطية تقود إلى خطية

يقول يوحنا الدرجى: «بعد أن نكون قد سقطنا فى هفوة، فلنحارب بالأخص شيطان الحـزن والكآبة، ويكمل القديس غـريغوريوس: «لأن من يقطع رجاءه فـإنه يقتل نفسه. فلا تتـركوا لأجل هذا طريق الرب، بل اثبتوا بالحرى بشجاعة ونشاط فى خدمته».

ظل القـديس فى سـقطـتـه. وجاءه شـيـطان اليـأس الذى يعـقب السقـوط، وملأ عقله بأفكار كـثيرة. فـقال له «بعد أيام قليلة سـيظهر عليها الحمل ويا ويلك سوف يظهر أمرك... ماذا ستعمل أنت أبصر...

إنه بالتأكـيد سـوف يأتى أصحابهـا ليفـتقدوها ولابـد أن يقتلوك فالأفضل لك أن تصنع هذه المشورة– أن تقوم وتقتلها.

وبالفعل قام الـقديس على الصبية وقـتلها وجرى مسـرعاً وحمل جسدها وطمره فى الرمل.

تعيير العدو له

ظهر له إبليس فى صـورة أحد غلمان الملك الذيـن جاءوا ليفتـقدوا الصبية كالعادة. ولما لم يجدها استـخبر عنها من الراهب فما كان من القديس إلا أن كذب، فأعلمه أنها خـرجت من عنده وصرعها الشيطان وهامت على وجهها حتى أفترسـهـا وحش رديئ وقتلها فدفنتها. فقال له ذلك الرجل المتـشبـه بالخادم يا راهب أخـاف أن الملك يطلبك، لذلك أريدك أن تحلف لي فحلف. فلما حلف صـرح له الشيطان بذاته وقال حـينئذ بصـوت السـخرية «يايـعقـوب يا يعـقوب أين طهـارتك؟ أين قداسـتك؟ أين صلاتك؟ أين قوتك؟ وإزعـاجك لي كل حين، وقد ظننت أنك ضربتنى ثلاث ضـربات سهلة الدواء أبصر هذه الثـلاث ضربات العسرة الشفاء!!

يا للأسف الزائد والحزن المبرح! من يسـتطيع أن يكشف عن حالة هذا المتوحد!! وكم كان مقدار حزن نفسه التي صعقت صعقاً فقد كان قلبـه كالبـحيـرة الملتهـبة بجـمرات الندم الحـارقة بل صـار كالآنيـة المكسورة والمسـحوقة كـالرماد. فحـالما سمع هذه الكلمـات من عدوه وانكشـفت عن عينيـه غمـامـة الخطية، حـتي لطم وجهـه، وترك باب القلاية مفتوحاً. وخرج هائمـاً على وجهه بلا عكاز، تائهاً يندب نفسه بالويل والعويل...

الفصل الرابع
القديس التائب

«الرب يقيم الساقطين...» (مز ١٤٥)

«كأب حقيقى تعبت معى أنا الذى سقطت»
(من قداس القديس غريغوريوس)

«لاتشمتى بى ياعدوتى فإنى إن سقطت أقوم».
(ميخا ٨:٧)

«أعظمك يارب لأنك احتضنتنى ولم تشمت بى أعدائى»

ندمه وانكساره

ترك القـديس قلايتـه ومشى وهو صـائم، يبكى وينتحب بـدموع غـزيرة جـارية كـأنهـا المطر المنهـمـر، وبقى تائهـاً فى تلك الجـبـال والبرارى، يجتاز الصحارى والأودية، ولا يستظل من الشمس بالنهار ولايسـتتر بالـليل من الصقـيع. بل كان يتـعذب وهو ينتـحب ويلطم وجهـه وصدره دائماً. وظـل هكذا سائراً سنة كاملة، يـأكل من عشب البرية. وبعد تمام هذه المدة وجـد طافوساً خرباً (مقبـرة خربة) كانوا يدفنون فيه الموتى فدخل فيه وبسط يديه لكى يصلى فلم يستطيع...

توبته الشديدة وصلاته

ظل القـديس يجاهد فى الطافـوس لكى يصلي. وأخيـراً رفع يديه وهو منكسر القلب، وانسكبت نفسه فى عبـرات كثيرة، وصرخ قائلاً: «إرحـمنى يارب ثم إرحـمنى. أنظر يارب إليّ، أنا هو الحـزين، أنا هو الشقى، أنا هو الخاطئ بالحقيقة. قد أخطأت يارب إرحمنى وأظهر فيّ كل صلاحك، ليتعجب الخاطئون ويرجعون إليك.

آه أيها الرب أفرح برجوعي، كما ذكرت فى إنجيلك المقدس أنك تفرح بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لايحتاجون إلى توبة.

نعم يارب بهذه الحيلة أخذنى العدو واستولى على، إرحمنى يارب ثم إرحمنى أنا هو الـشقى بالحقـيقة، أنا هو الحـزين بالحق إرحمنى ياربى وإلهى يـسـوع المسـيح أنا هو المخـدوع المسـكين، أنا الذى لى خمـسون سنة أزرع وأضـع فى المخازن، وفى سـاعة واحدة ضـيعت جميع ما خزنته. أنا هو الضعيف البائس الذى له خمسون سنة أجمع، وفى طرفة عين بددت الجميع.

بأى عين رديئة أسـتطيع ياسيدى أن أرفـعها نحوك إلى السـماء؟

لاتطرحنى يارب من قدام وجـهك. الويل لى وعليّ يارب ثم الويل. فى نهار واحد قد أكملت جـميع الخطايا، ويلى ثم ويلى أيها المسيح إلهى، زنيت وقـتلت وكذبت وحلفت فـى نهار واحـد. الويل ثم الويل الأعظم لى يارب. أنا تركتك يارب فسقطت هكذا.. إرحـمنى يا صاحب معادن الرحمة والنعمة والحياة، إرحمنى يارب أنا الذى أهلكت الجسد الطاهر وقتلته، والآن فى التراب دفنته، إرحمنى يارب ثم إرحمنى...

داود يارب الذى دعوته حسب قلبك- وكان مسـتغنياً عن الفجور- سقط وزل، ولكن ليس كمثل زلتى يارب.، كما قلت فى إنجيلك المقدس أن زانية طلبـتك فخلصتهـا ! فإرحمنى يارب ثم إرحمنى- سـامحنى يارب برحـمتك، لاتنظر يارب إلى خطاياى. ولا تجـعل يارب الأرض تفتـح فاها وتبـتلعنى لأجل عظم خطاياى. لا يارب، لاتصـرف وجهك عنى، ولا عن دعوتى وصراخى الصاعد إليك من قلب محترق وبائس. أنا أعلم يارب أن لسـانى نجس، وعـينى مملوءة إثماً، ويداي ملطخـة بتلويث الدم الطاهر بـغيـر ذنب ولا خطيـة. إرحمنى يارب، ولا تأمـر النار فتنزل من السماء وتحرقنى...».

وصار يبكى والدموع تنزل من عينيه كمثل لون الدم غزيرة كالمطر، ويقال أن العشب نبت تحت قدميـه من الدموع، وصار طعامه من ذلك العشـب. وكان يقف على قـدميه بـين عظام الأموات وإذا أزعجـه قلق الندم كان ينعس يسيراً، ثم ينهض ويبسط يديه إلى السماء، ويصرخ بأعلى صوته «إسمعنى يارب، وإرحمنى كعظيم رحمتك...».

وأقام هكذا نحو سبعة عشر عامـاً، والقبر مغلق عليه وهو يحسب نفسه ميتاً. (هكذا تكون التوبة الحقيقية والقوية أما توبة صلوات الدقائق البسيطة دون تعب أو دموع أو استمرار فى الندامة بعض الوقت فلا تنفع).

الفصل الخامس
تعزيات الله للقديس

«حـولت نوحـى إلى فـرح لى، مـزقت مـسـحى ومنـطقـتى سـروراً» (مـز ٢٩)

«..لأن رحـمـتك أمـام عـينـى هى» (مز ٢٥)

أرجعه إلى رتبته الأولى..

حـدث بعد هذه الأيام أن خـربت البـلاد التى كانت مـحـيطة بتلك المقبرة، وصارت مجاعة عظيمة فيها. فرأي أسقف تلك المدينة فى رؤيا الليل شـخـصـاً يقـول له: «إن كنت تريـد أن تنزل رحـمـة الله على الأرض. وتمتلئ الأرض نعمة. أمض إلى رجل يقال له يعقوب المجاهد فى ذلك القبـر الخرب. وعندما يطلب هذا من الله تجئ الرحـمة، وهذه علامة له على غفران خطاياه.

فلما سمع الأسقف ذلك فى منامه، استـيقظ برغبة شديدة، وخرج لوقته هـو وكهنته ومضوا إلى ذلـك المدفن، فوجدوا القديس فـيه قد صار كالشبح. ولما دخل إليه الأب الأسـقف، أخذ بركته وطلب منه أن يصلى لكى تأتى مـراحم الله. وما أن سـمع يعقوب هذا الـكلام حتى لطم وجهه وهو يبكى ويقول «ويلى يا أبى، من هو أنا الخاطئ الزانى القـاتل الحـانث!! أبعد الآن عـنى، واطلب غيـرى، ثم رفع عـينيـه إلى السماء وقـال «الحقنى يارب ياسيد ولاتفـضـحنى، فإنهم يحـسبوننى كما كنت أ ولاً، قبل أن أسقط فى خطاياى السمجة.

لاتفضـحنى يـارب بين يدى خليقتك، ولاتخجلنى بين يدى عـبيدك. وأجعلنى من أصحاب الساعة الحادية عشرة، إرحمنى يارب».

فأمسك الأب الأسقف بيديه، أخرجه إلى خارج القبر وهو غارق فى دموعه وقال له «من أجل محبة الله، أرحم هذا العالم، وأطلب من المسيح ليرحم عبيده» فقال: دعنى يا أبى، لأننى ما أقدر أرفع عينى إلى السماء بسب خطاياى.. فأخبره الأب الأسقف برؤياه وأمر الرب له بذلك...

وبعد خطاب طويل رفع عينيه إلى السماء وبسط يديه إلى خالقه وقال «ليكن كرحمتك ولا كخطاياي، وحيث تكون رحمتك لا مكان لأثر الخطية، أسألك يارب بصلاة هذا الآب الأسقف، أن ترحم هؤلاء الأطفال الذين لم يخطئوا إليك ولم يعرفوا خيراً ولا شراً، ولم يتمم هذا الكلام إلا وانفتحت ميازيب السماء، وأقبل الرعد والعواصف ثم انهمر الغيث.

أخيراً أخذ الشعب بركة هذا الآب وكانوا يأتون إليه دائماً وهكذا جاء الخير والنماء وطلع الزرع وعادت الحياة واستجاب الله لتوبته التي جاءت نتيجة دموعه المنهمرة كالمطر.. فإنهال بسببها المطر!!

ولكن ظل القديس ملازماً تلك المقبرة عشر سنوات أخري، وكان الشعب يزوره، وكانوا يجدونه دائماً باكياً مستغيثاً بالله جل اسمه إلى أن نيح الله نفس هذا القديس واستراح.

وتعيد الكنيسة له فى اليوم الثالث من شهر أمشير.

بركة صلاته تكون معنا ولربنا المجد دائماً أبدياً أمين.

مراجع الكتاب

١ – مخطوطة رقم ٢٨٠ دير السريان.

٢ – كتاب «قديسو مصر» د. أوليري.

٣ – السنكسار المستعمل في الكنيسة.

٤ – سنكسار رينيه باسيه.

٥ – أديرة وادي النطرون «إيفلين هوايت».

❖ ❖ ❖